الجوانب السياسية في شعر معروف الرصافي: دراسة تحليلية

MAROUF AL-RUSAFI AND POLITICAL ASPECTS IN HIS POETRY: AN ANALYTICAL STUDY

*د. ذاكر حسين جمشيد

ABSTRACT:

In the first half of the twentieth century, Iraq witnessed many thinkers and politicians who left fingerprints in the history. A new era of intellect and politics emerged with the emergence of the elite people in the field of thought and politics. One of them is known as Rusafi, who called on Muslims and Christians to unite and achieve glory for the homeland by saying: (It is not harmful if we cooperate between us to prosperous our countries and be strength for those who do not know that we are at brothers. Marouf Rasafi started his poetic life at his early youth, where he had command on composing political poems; he attacked by his poetry the Ottoman Empire and the British occupation authorities. His feelings in poetry were reflecting the reality of life and his poetry applies painful reality often images embodied different stages of life, including political, social, economic and others. In his political career, Rusafi went through three important stages: the Ottoman Empire, the English occupation and the mock governments. This article deals with the political status of Rusafi and shows his opinion, citing from his poems.

KEYWORDS: Al-Rusafi, Political aspects, freedom, Ottoman Empires, Constitution, Paris Summit, government mandatory, Agreements, British, The east,

الكلمات المفتاحية: الرصافي ، جوانب سياسية ، حرية ، الامبراطوريات العثمانية ، دستور ، قمة باريس ، انتداب حكومي ، اتفاقيات ، بريطانية ، شرق.

*الباحث السابق، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو – نيودلهي – الهند.

الملخص:

زخر العراق في النصف الأول من القرن العشرين بنخبة من الاعلام في الفكر والسياسة تركوا بصمات في ذاكرة التاريخ، وكانت نتاجاتهم وطروحاتهم معين لا ينضب لمن يريد المراجعة والتوثيق والتعريف بموضوعية قابلة للنقاش وقبول الرأي والرأي الاخر، وعلى هذا الأساس بلغت الحركة الفكرية والسياسية العراقية عهدا جديدا من النضج والاصالة بظهور نخبة الفكر والسياسة ومن عيلها معروف الرصافي الذي دعا المسلمين والمسيحيين إلى الاتحاد وتحقيق المجد للوطن بقوله: (ما ضر لو كان التعاون بيننا فتعمر البلدان و تأمين قطان وقوة لمن لا يعرفنا أننا على كل حال في الوطن إخوان.

بدأ معروف الرصافي ينظم الشعر في مطلع شبابه حيث كان جريئا في قسم من أشعاره السياسية، فقد هاجم بإشعاره الدولة العثمانية وسلطات الاحتلال البريطانية.والشاعر لم يكن يقول الشعر بعقله بل بروحهوقلبه فكان شعره صادقا رقيقا سريع الوصول الى أذهان الناس من العامة والخاصة، فكانت أحاسيسه تعبر عن واقع الحياة وشعره ينطقبالواقع الاليم بصور كثيرا ما جسدت مراحلالحياة المختلفة السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

مرت على الرصافي في حياته السياسية ثلاث مراحل هامة هي: الإمبراطورية العثمانية و الاحتلال الإنجليزي والحكومات الصورية. هذا المقال يتطرق إلى مواقف الرصافي السياسية يبين رأي الشاعر فيها مستفيدا من أشعارالشاعر،ونظرا عابرا إلى حياته وآرائه في العثمانيين والانتداب والحكومة والوزراء والدستور ومؤتمر باريس والمعاهدات والانكليزية والشرق.

الكلمات المفتاحية: الرصافي، السياسة، الحرية، العثمانيون، الدستور، مؤتمر في باريس، حكومة الانتداب، المعاهدات، الانجليز.

شاعريته:

بدأ معروف الرصافي ينظم الشعر في مطلع شبابه حيث كان جريئا في قسم من أشعاره

السياسية، فقد هاجم بأشعاره الدولة العثمانية وسلطات الاحتلال البريطانية. كانالرصافي جزل الألفاظ في أكثر شعره عالي الأسلوب حتى في مجونه، زاخر بالعاطفة متأجج بالشعور الوطني يفتقر إلى الروعة والجمال والأناقة في التعبير ولكنه غني بالإحساس ونزعة التمرد على الظلم وعشق الحرية. أما استخراجه للمعاني الدقيقة المبتكرة فقد فاز منها بسهم وافر يشبه في بعض قصائده البحتري في جانب والتي في جانب آخر. ومن ناحية الألفاظ راينا للرصافي تعابير لم نسمعها من غيره.([1])

ولا شك أن معروف الرصافي أقام دولة للشعر في القرن العشرين وخلد اسمه بين الشعراء الأفذاذ كالفرزدق وجرير وأبي تمام والمتنبي. فديباجته ناصعة، وبيانه عذب، وقوافيه محكمة، ومعانيه بعيدة، وأن أغراضه، شملت السياسة والاجتماع والحكمة والرثاء والوطنية والتربية والتعليم ووصف الطبيعة وسائر مواضيع الشعر في عصر النهضة الحديثة.

الجوانب السياسية في شعره:

إن الشعر العربي قد عرف في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ودار نهضته وازدهاره، واشتمل على موضوعات سياسيه، واجتماعية، وحضارية. إن الأدب – والشعر جزء منه – قادر على أنه يؤثر تأثيرا إيجابيا فعالا في صنع التاريخ وفي تحويل مجرى الحياة وتغيير أوضاعها. وهذا ما حمل الشعراء آنذاك على تناول القضايا العامة في شعرهم، فجعلهم يتحدثون عن الحرية والاستقلال والعدل ونظام الحكم، وعن المجتمع وأحواله ومشكلاته، وعن شخصية الأمة و تاريخها وحضارتها ولغتها، ويشاركون في البحث عن ذاتها وعن العناصر التي تكون هذه الذات وتحدد معالمها. ([2])

كان الرصافي يعيش في زمن شهد مجتمعه كثيرا من الأحداث و التطورات السياسية الخطيرة، فهو عايش في حياته الأدبية ثلاثة عهود سياسية، فأول مرحلة حياة الشاعر الأدبية مضت تحت ظل الحكم العثماني و ما رأى فيه من الإستبداد و ظلم الحكام وذوي

[1] قبيس، أحمد: **تاريخ الشعر العربي الحديث**: بيروت، دار الجيل، 1970م، ص: 404.

[2] بقاعي، ايمان يوسف، **معروف الرصافي نار أم كلم**، ص: 17، بيروت، دارالكتاب العلمية 1996م.

القدرة على الناس، ثم انقلبت الأوضاع و رأت الأمة العربية نفسها أمام الحرب العالمية الأولى و قيام شريف حسين و وقوفه أمام العثمانيين، ثم إحتلال العراق من قبل الإنجليز و هذا العهد يكون المرحلة الثانية من حياة الشاعر السياسية. والمرحلة الثالثة تكون عهد الإنتداب و الرصافي بصفته شاعر ملتزم ما سكت أمام هذه الحوادث بل نظم أشعارا كثيرة فيها.

و كان يدعو إلى الثورة العارمة على الحكومات التي تستعبد شعوبها وكان الأحرى بها أن تخدمها وترعاها في أسلوب زاخر بالعاطفة متأجج بالشعور الوطني، مفتقر إلى الروعة والخيال والأناقة في التعبير. لكنه غني بالإحساس و نزعة التمرد على الظلم وعشق الحرية.([3])

الرصافي والحريه:

اشتهر الرصافي "شاعر الحرية" بما نظمه من أشعار ثورية ملتهبة ولما عالجه من قضايا اجتماعية وسياسية وقد كان الرصافي منذ نعومة أظفاره يدافع ببسالة عن قضايا وطنه فلم يفتأ يقاوم الاستعمار ويدافع عن حرية الوطن وعدم الانخداع بأحابيل سياسة المستعمرين وأراجيفهم التي كانوا يخدعون بها الشعوب وقد دفع الرصافي الكثير من حريته الشخصية ثمنا باهضا لمواقفه الثورية النبيلة إزاء الحكم القائم آنذاك. ([4])

كان الرصافي يؤمن بحرية الفكر ويعتبر أن حق الإنسان بها حق مقدس وكان يعتقد بأن البلاد ما لم تتوافر فيها هذه الحرية وهو يحتضن حرية الفكر قولا وعملا ويخلص لها أشد الإخلاص، ولعل تمسكه بها كان من أهم الأسباب التي جعلته مضطهدا من قبل العربية لا يمكنها أن تنهض الحاكمين. يقترن بحرية الفكر والصدق والصراحة والجراءة والحق، والاستقلال في الرأى وقوة الشخصية وفهم الأمور على حقيقتها ونمو الرأي العام. وفي قصيدة عنوانها "في سبيل حرية الفكر " قال الرصافى:

---

[3] قبيس، أحمد: **تاريخ الشعر العربي الحديث**: بيروت، دار الجيل، 1970م، ص: 402.

[4] خورشا، صادق، **مجاني الشعر الحديث ومدارسه**، ص:95، طهران، مطبعة السمط، 1381هـ.

كتبت لنفسى عهد تحريرها شعرا وأشهدت فيما قد كتبت لها الدهرا

ومن بعد إتمامى كتابة عهدها جعلت الثريا فوق عنوانها طغرا ([5])

فالشاعر قد بدأ بتحرير نفسه وجعل شعره يلتزم هذا التحرير مشهدا عليه الدهر مسجلا في التاريخ عهدا وثيقا، ممهورة بأضواء الثريا ليغدوا أشد ما يكون وضوحا وطبيعي أن يرافق تحرير النفس. جهر بقول الحق وبعد عن الرؤيا.

فالرصافي يدعو إلى استقلال العرب في الرأي والعقيدة والتفكير والقول والوسائل الإعلامية المختلفة وفي الثقافة والتربية والتعليم والفن. لذلك يعتبر أن حرية الفكر هي أم الحريات وأن الأوطان لن تستقل في سياستها ما لم تستقل في تفكيرها.

ولعل من أبرز قصائده المشهورة التي أنشد حول الحرية قصيدة "الحرية في سياسةالمستعمرين"، هذه القصيدة هي من النوع الساخر الخفيف وهذا ما جعلها سهلة الفهم مقبولة لأذن المستمع، ميسورة على الذهن والفكر والوجدان يقول الشاعر مخاطبا بنى وطنه:

يا قوم لاتتكلموا إن الكلام محرم

ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم

وتأخروا عن كل ما يقضي بأن تتقدموا

ودعوا التفهم جانبا فالخير ألا تفهموا

وتثبتوا في جهلكم فالشر أن تتعلموا

أما السياسة فاتركوا أبدأ وإلا تندموا ([6])

يا قوم اخرسوا ولا تتكلموا فالكلام عليكم محرم وناموا لأن النائم في هذا الزمن هو الفائز

[5] الرصافي، معروف، **الأعمال الشعرية الكاملة**، المجلدان الأول والثاني، ص:13، بيروت، دار العودة 2006م،

[6] نفس المصدر، ص: 582.

وتأخروا عن ركب الأمم واتركوا كل أسباب التقدم، واجهلوا لأن العلم شر كل الشر واتركوا الاشتغال بالسياسة وإلا ندمتم.

الرصافي والعثمانيون:

شارك معروف الرصافي ابناء العراق في كل أحوالها منذ سيطرة الدولة العثمانية وقيام الحرب العالمية الأولى وثورة العشرين وتتويج الملك فيصل فضلا عن الحرب العالمية الثانية، وكان لكل هذه الأحداث مواقف تذكر للشاعر معروف الرصافي. فعن وضع الحكومة العثمانية الاستبدادي وقال قصيدة بعنوان تنبية النيام.

اما آن أن يغشى البلاد سعودها ويذهب عن هذي النيام هجودها

متى يتأتي في القلوب انتباههافينجاب عنها رينها وجمودها

أما اسد يحمي البلاد غضنفرفقد عاث فيها بالمظالم سيدها ([7])

فهو بعد ذكر هذه الأبيات التي تشبه مقدمة تمهد الشرائط للتطرق إلى الموضوع الرئيسي ينشد أشعارا يدرس فيها أوضاع المجتمع تحت سيطرة الإستبداد الحميدي متعجبا لخضوعهم أمام السلطان قائلا:

إذا ولي أمر العباد طغاها وساد على القوم الشراة مسودها

فما أنت إلا أيها الموت نعمة يعض على أهل الحفاظ جحودها ([8])

ويعتقد الرصافي بأن على الحكومة أن ترهب من الناس ومن عدم رضاهم من أعمال الحكام، لأن كل ما يكون بين ايديها من الجيوش و النقود ومن الناس، و يتعجب لأنه يرى في مجتمعه أن الأمر شاع خلافا لذلك والناس يخافون الدولة وبعد ذا يقول إذا أصبح العلماء منبذين والجاهلون مدعوين، فالموت أفضل وأعلى من العيش،ثم يحرض أبناء وطنه على الكفاح و الثورة على الإستبداد الحميدي و يوجه اليهم الشنان بسبب سكوتهم امام

[7] مصطفي علي، ديوان الرصافي، ج 3، ص:70، وزارة الأعلام العراقية، دار الحرية، بغداد 1975م،

[8] نفس المصدر، ص: 70.

هذا التعسف المظلم قائلا:

بني وطني مالي أراكم صبرتم على نوب أعيا الحصاة عديدها

فعدتم عن السعي المؤدي إلى العلي على حين يزري بالرجال قعودها

ولم تأخذوا للأمر يوما عتاده فجاء أمور ساء فيكم عتيدها ([9])

فهو يشمت ابناء شعبه بسبب عدم معارضتهم الحكومة ويحذرهم من يوم يتحسر الناس على ماضيهم و قعودهم وإهمالهم أعمالهم، وهذا إلتزام حقيقي نراه في أشعار معروف الرصافي، ثم الشاعر يدعو الناس إلى الإتحاد و التعاون و يبعدهم من أن يكونوا مقلدين تقليدا عشوائيا

الرصافي والدستور:

فرح الناس و معهم الأدباء بعد إعلان الدستور، فهم كانوا يفكرون بأنهم قد وصلوا إلى ما يريدون من الحرية و المساواة ولكن ما مضت إلا سنة واحدة من إعلان الدستور حتى رأي الناس تململ الأحرار و بعدهم خطوة تلو أخرى من الشعارات والمواعيد التي وعدوا بإنجازها في بادئ الأمر، والرصافي ايضا منهم، فوقف شعره في سبيل الدفاع عنهم وعن قيمهم وعما يرتبط بإصلاحهم ونيلهم إلى التعالى وإلى العلم والثقافة، فما لبث أن يسل لسانه من غمده وينشد قصيدته « شكوى إلى الدستور»، لما سقطت وزارة حلمي باشا وقامت بعدها وزارة حقي باشا انتقد خطة الإصلاحيين عقب الدستور:

شكاية قلب بالأسى نابض العرق إلى قائم الدستور والعدل والحق

لقد جئت من أفق الصوارم طالعا علينا طلوع الشمس من منتهي الأفق

فصادفت منا أمة قد تعشقت لقاء حتى جاوزت مبلغ العشق ([10])

فهو يخاطب الدستور و يذكر إعتناقه للحكم الدستوري ولو من أجلها ضربت عنقه، وهذا

[9] نفس المصدر، ص: 71.

[10] الرصافي، معروف، **ديوان**، ج 2، ص: 252، د.ط، بيروت، دار العودة، 1986م.

ينبع عن إلتزام الشاعر به ويعتقد بأن الدستور و الحق و العدل ملوك الناس ولا يليق لأحد غيرها- يعن غير الحق و العدل و الدستور- أن يحكم على الناس، ثم يذكر حبه و حب ابناء وطنه للدستور والحكم الدستوري و يعبر عن أملهم للحكم الدستوري وهي الوصول إلى الإتحاد و الترقي:

بك اليوم أشقانا الإلى أنت مسعدلديهم فيا لله للمسعد المشقي

تراك بأيديهم على الخلق حجة وأنت عليهم حجة لا على الخلق

ولم تك ندري لإهتضام حقوقنا أنحن من الأحرار أم نحن في رق؟

ولم نستفد إلا سقوط وزارة وتأليف أخرى مثل تلك بلا فرق

وماذا عسى يجدي سقوط وزارة إذا لم تقم أخرى على العدل والصدق ([11])

يعتقد الشاعر في هذه الأبيات بأن الذين صاروا حكام الناس و اولياء أمرهم بعد إعلان الدستور و بواسطة الدستور لم ينهجوا نهج الصواب بل خطوا في طريق تضليل الناس و سوقهم إلى الشقاوة و الثبور، فكل شيء وصل إليه الناس من الحكم الدستوري هي سقوط وزارة و تأليف أخرى مكانها، وهي مثلها في نتائجها السيئة و نهجها الردئ.

فنرى كيف الرصافي يسيء الظن بالحكم الدستوري و ييأس من هذا الحكم و يسلك مسلك الإنتقاد والتهكم أمامه، وهذا الحال ليس ما نراه في معروف الرصافي فقط، بل يعم في ذاك العصر أكثر الشعراء.

الرصافي وموتمر باريس:

من المظاهر التي عارضها الرصافي وهجم عليها في أشعاره إنعقاد موتمر فى بيروت وبعدها في باريس من قبل الإصلاحيين. فالرصافي في بادئ الأمر دعم من حركتهم الإصلاحية في إطار الدولة العثمانية و أيدهم في أشعاره ولكن بعد إطلاعه على لائحتهم وما رأى فيها من فساد أنشد قصيدة تحت عنوان «ما هكذا»،وفيها يفند رأي الإصلاحيين و يهجم

[11] نفس المصدر، ص 252.

عليهم:

أصبحت أوسعهم لؤم وتثريبا كما إمتطوا غارب الإفراط مركوبا

وألهبت منهم الأهواء جارية إلى التفرق ألهوبا فألهوب

فأرهجوا الشر حتى إن هبوته مدت سرادقها في اللوح مضروبا

راموا الصلاح و قد جاءوا بلائحة خرقاء تترك شمل الشعب مشعوبا

عدوا النصارى وعدوا المسلمين بهاونحننعهدهم طرا أعاريبا ([12])

فالشاعر يصبح من لائمي الإصلاحيين وأعمالهم بعد أن كان من مؤيديهم وما هذا إلا بعد ركوبهم مركب الإفراط و مشيهم في طريق التفريق. فالرصافي يقول إن الإصلاحيين قصدوا الإصلاح ولكن ضلوا الطريق و جاءوا بلائحة لا تشم منها رائحةالإصلاح و كل ما جاءوا به يدعو إلى الخلاف و التفرقة و منها التمييز بين المسلمين و النصارى من العرب، فهو يشكو من الإصلاحيين مردفا قوله:

من مبلغ القوم أن المصلحين لهم أمسوا كمن لبس الجلباب مقلوبا

ما ضرهم لو نحوا في الأمر جامعة ننفي الكنائس عنها والمحاريبا

اقاموا يريدون إصلاحا فقمت لهم استنطق الشعر تأهيلا وترحيبا

حتى إذا محضوا آراءهم ظهرت للناس زبدتها ثأيا وتخبيبا ([13])

فهو يعتقد بأن للمصلحين هدفا شريفا و نبيلا وهو الإصلاح، ولكنهم عدلوا عن الحق و صاروا كالذي يلبس جلبابه مقلوبا، يعني دعوا إلى شيء و مشوا في طريق آخر و من أخطائهم في هذا الصدد التفريق بين المسلمين و المسيحيين. و يربط الشاعر هذا بتعصبهم في الدين و يقول إنهم قاموا للإصلاح ولكن حين أظهروا آرائهم للناس ما رأوا فيه إلا

[12] الرصافي، معروف، **ديوان**، ج 2، ص: 263، د.ط، بيروت، دار العودة، 1986م

[13] نفس المصدر، ص: 264.

الفساد والضعف.

الرصافي وحكومة الانتداب:

هذه مواضع الرصافي حيال الوقائع التي كانت داخل إطار الحكومة العثمانيين، ولكن الأمر ما بقي هكذا، بل مع بدء الحرب العالمية الأولى تدهورت الأوضاع وتطورت بحيث نرى قيام العرب بقيادة شريف حسين ضد الأتراك و إنهيار الدولة العثمانية. فالرصافي في هذه الحرب يقف ضد المستعمرين الغربيين ويدعو إلى حمايةالعثمانيين ويعارض بعد إنهيار الحكومة المركزية المحتليين الاجانب و كذا الحكومة الوطنية الصورية التي تعرف باسم «حكومة الإنتداب» والوزراء الذين لا يعلمون شيئا إلا إتباع خطط الأجانب، فيقول في قصيدته « حكومة الإنتداب »:

هذي حكومتنا وكل شموخهاكذب، وكل صنيعها متكلف

عشت مظاهرها و موه وجهها فجميع ما فيها بهارج زيف

وجهان فيها باطن متسر للأجنبي و ظاهر متكشف

و الباطن المستور فيه تحكموالظاهر المكشوف فيه تصلف ([14])

فالشاعر يبين لمخاطبيه آراءه في هذه الحكومة، فيهجم عليها و يشير إلى الإنتداب البريطاني ويقول ان حكومتنا في الظاهر حكومة وطنية ولكن في الباطن تحت سيطرة الأجانب، ثم يردف قوله:

سيطرة علم و دستور و مجلس أمةكل عن المعنى الصحيح محرف

أسماء ليس لنا سوى ألفاظها أما معانيها فليست تعرف

من يأت مجلسنا يصدق أنه لمراد غير الناخبين مؤلف

من يأت مطرد الوزارة يلفهابقيود أهل الإستشارة ترشف ([15])

[14] نفس المصدر، ص: 403.

فالحكم الوطني حكم ظاهري صوري، والعلم و الدستور و مجلس الأمة ليس اسوري أسماء خلابة ظاهرها جميل ولكن باطنها فاسد، فالدستور وضع لمصالح الإستعمار و علم البلاد يرفرف لعز غير مواطني البلاد و المجلس ايضا صوري و ليست للوزراءارادة في إدارة شئون البلاد. فبما أن الحكم والحكومة من صنع الإستعمار فلا عجب أن يغضب الرصافي على الحكومة:

أفهكذا تبقي الحكومة عندناكلها تموه للورى وتزخرف

كثرت دوائرهاوقل فعالها كالطبل يكبر وهو خال أجوف

كم ساءنا منها ومن وزرائها عمل بمنفعة المواطن مجحف ([16])

فيصف الرصافي ميزات هذه الحكومة الصورية بأنها كالطبل الأجوف

الرصافي والمعاهدات:

من الأمور التي عالجها الرصافي في أشعاره، المعاهدات التي كانت بين العراق والحكومات الإستعمارية، فالرصافي في بداية الثلاثينيات أصبح نائبا في المجلس النيابي العراقي « حيث كان نوري السعيد رئيسا للوزارة و قد اعترض الرصافي على توقيع المعاهدات التي قدمتها بريطانيا بواسطة نوري السعيد، و كشفت في كلماته في المجلس النيابي مخاطر تلك الإتفاقيات متسائلا: أية معاهدة هذه تقوم بين الطرفين أحدهما قوي محتل و الآخر ضعيف؟. و أية منافع سيجنيها العراق من جراء عقد تلك الإتفاقيات؟». فقد كان المستعمر نائم الملمس ولم يحاول إلا في ساعات اليأس أن يستفز مشاعر الشعب، خلافا لما كانت تتورط به فرنسا في سوريا من طيش. وربما كانمعروف الرصافي و مُحَمَّد مهدي الجواهري و جميل صدقي الزهاوي أبطال هذا الميدان، ومن ذلك قصيدته للرصافي يقول فيها:

خلقتم لنا من كل عهد مموه قيودا بها استقلالنا يتقيد

[15]الرصافي، معروف، **ديوان**، ج 2، ص: 404، د.ط، بيروت، دار العودة، 1986م

[16]نفس المصدر، ص: 404.

إلى أن غدا إستقلالنا ضحكة الورى به ساخر كل امرئ و مندد ([17])

هذان البيتان في قصيدة تحت عنوان « بين الإستقلال و الإنتداب» وفي قصيدة أخرى عنوانها «كيف نحن في العراق»،يشير إلى هذه المعاهدات الزائفة بين الإنجليز و العراق ويقول:

وليس الإنكليز بمنقذيناوإن كتبت لنا منهم عهود

متى شفق القوي على ضعيف وكيف يعاهد الخرفان سيد

ولكن نحن في يدهم أسارى وما كتبوه من عهد قيود ([18])

و في قصيدة أخرى عنوانها «عند نشر المعاهدة» يشير إلى أحدى هذه المعاهدات بين الإنكليز والعراق :

نشروا المعاهدة التي في طيها قيد يعض بأرجل الآمال

قد أبلعونا حبة إستعبادنا لكن مموهة بالإستقلال

كتبوا لنا تلك العهود وإنماوضعوا بما قفلا على الأغلال

شلت أكف موقعيها إنهمحلت عليهم لعنة الأجيال ([19])

فالشاعر يعتقد بأن لهذه المعاهدة ظاهرا جميلا يشير إلى إستقلال العراق ويدعو اليه ولكن في الباطن تسوق البلاد إلى الإستعباد والخراب، و يشبه الوعد بين الإنكليز و العراق بالوعد بين الشاة والرئبال ولا محالة أن الشاة يكون مغبونا في هذه المساومة ثم يشير إلى ماهية هذه المعاهدات، فما هذه إلا لجعل القيود و السلاسل على رقبة الشعب العراقي، ثم يهدد الحكوميين بأن الأحوال ما تبقي على هذا، ولامحالة يجيء يوم تنفك فيه هذه القيود، وفي ذاك اليوم يعلم من المغبون الحقيقي؟.

[17] الدقاق، عمر، الإتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، ص: 21-32، د.ط، بيروت،دار الشرق العربي، 1985م.
[18] الرصافي، معروف، **ديوان**، ج 2، ص: 399، د.ط، بيروت، دار العودة، 1986م
[19] نفس المصدر، ص: 523.

الرصافي والانجليز:

من الموضوعات التي عالجها الشاعر في أشعاره السياسية وتطرق إليهاهو الإنجليز وما يرى فيهم من الخدع والدسائس، فرأى الشاعر أن على عاتقه تنبيه الشعب أمام هذا العدو الغاشم، فأنشد عدة قصائد في هذا الصدد، منها قصيدة « يوم الفلوجة»:

أيها الانكليز لن نتناسى بغيكم في مساكن الفلوجة

ذاك بغي لن يشفي الله إلا بالمواضي جريحه وشجيجه ([20])

فالرصافي يهدد المستعمرين بأن بغيهم وعدوانهم يبقي في ذاكرة أهالي الفلوجة وهم لا ينسونه أبدا، ويهددهم بأن يرد الناس على هذا البغي بالسيوف الماضية و بهذا وحده يشفي الجريح والشجيج الذي كان العدو الغاصب مسببه، ثم يواصل قوله:

حلها جيشكم يريد إنتقاما وهو مغر بالساكنين غلوجه

يوم عاثت ذئاب آشور فيها عيثة تحمل الشنار سميجه

فاستهنتم بالمسلمين سفاها واتخذتم من اليهود وليجه

وأدرتم فيها على العزل كأسا من دماء بالغدر كانت مزيجه

واستبحتم أموالها وقطعتم بين أهل الديار كل وشيجه ([21])

الشاعر هنا يصور لنا الجيش المحتل المغرور، فهو يعيث في الأرض فسادا و يسمح الأبناء آشور واليهود بأن يؤذوا المسلمين، وفي هذا العمل إستهانة للمسلمين ومع أنهم إستنجدوا اليهود والرجال الضخام الجثث من الكفار للغلبة على المسلمين مع هذا لا يتجرؤون إلا على العزل، فيسفكون دماءهم غدرا و يستبيحون أموالهم، ثم يسأل:

أفهذا تمدن وعلاء شعبكم يدعي اليه عروجه

[20] نفس المصدر، ص: 412.

[21] نفس المصدر، ص: 413.

أم سكرتم لما غلبتم بحربلم تكن في إنبعاثها بنضيجه ([22])

يخاطب الشاعر الإنكليز و يسألهم أهذا القتال الذي أنتم مسببه في الفلوجة هو التمدن الذي أنتم تدعونه، ثم يردف قوله بأن هذه الحرب اثبتت أن كل ما يدعيه الغرب من التمدن والثقافة ليس إلا أضغاث أحلام.

الرصافي والشرق:

إن للرصافي نزعة شرقية بمعنى أنه دافع في أشعاره من الشرق و الشرقيين أمام الغرب ومطامعه و آماله المكروهة و برامجه الاستعمارية في الشرق فبرز هذه الترعة في القصائد التي هجم فيها على الغرب و دافع عن أمته الشرقية و أنهضها على الجهاد أمام الغرب و مطالباتها النكراء في الشرق.

للرصافي قصيدة عنواها "الفيل و الحمل"، فيها نرى نزعته الشرقية بوضوح؟ فهو يربط بين تحرر العراق من أيدي الإستعمار و بين تحرر الهند، و «يرمز فيها إلى الهند والعراق بالفيل المكبل و الحمل، كما يرمز للمحتل الإنكليزي عدوهما المشترك بالذئب

فيقول:

إذا ما سمعت الهند في قول قائل تخيلت فيلا بالحديد مكبلا

فلو قام هذا الفيل و استجمع القوى لهز بها شم الجبال و قلقلا

لنا حمل وهو العراق نظنه غدا من وراء الفيل للذئب مأكلا

فإن ينج هذا الفيل من قيد أسرهنجونا وإلا أصبح الأمر معضلا ([23])

فمن خلال هذه الأبيات تتضح الآلام المشتركة التي آخت بين البلدين الشرقيين وربطت بينهما في مصير واحد، و الرصافي لا يرجو خلاصا للعراق إلا بعد تحرر الهند و هكذا كان.

[22] الرصافي، معروف، **ديوان**، ج 2، ص: 413، د.ط، بيروت، دار العودة، 1986م

[23] نفس المصدر، ص: 379.

هذا معروف الرصافي الذي يدافع في أشعاره عن المجتمع الإسلامي والأمة العربية و يهجم على أعدائهم الغربيين، ولا يتوقف عند هذا الحد، بل نراه يدافع عن الشرق كله أمام مطامع الغرب وخططهم الإستعمارية.

الرصافي والتعاون والاتحاد:

إندعوة الرصافي إلى الإتحاد هي دعوة واسعة تشمل الناس كلهم ولا تفرق بين أحد منهم، وهو يدعو الناس إلى السلم والمحبة والمؤاخاة وإلى نبذ الأحقاد والأضغان والتخاذل. الرصافي يرفض اختلاف أصحاب الأديان، ولا يميز بين المسلم وغير المسلم في مختلف الأديان، وبين السني والشيعي في دين الإسلام. ويعتقد أن الذين يعيشون في بلد يجب عليهم أن يجتهدوا لرقي بلدهم ويعملون لإزدهارهمهما اختلفت الأديان. ويقول إن الذين يعيشون في بلد واحد ويتكلمون بلسان واحد ويؤمنون بالله لا دليل لاختلافهم ولا مانع من أخوتهم، معتقدا أن كل الأديان قد جاءت لتسعد الإنسان، وكما نعلم سعادة الإنسان في رهن سعادة وطنه وسعادة الوطن لا تتوفر إلا باتحاد الناس وتعاونهم فيقول:

أما آن أن تنسى من القوم أضغانفيبنى على أس المؤاخاة بنيان

أما آن أن يرمي التخاذل جانبا فتكسب عزا بالتناصر أوطان

فأي اعتقاد مانع من أخوة بهاقال إنجيل كماقال قرآن

كتابان لم ينزلهما الله ربنا على رسله إلا ليسعد إنسان ([24])

الخاتمة:

طغت موجة التجديد عند العرب في الشعر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وتجلت في العمران، والأخلاق، والتقاليد، والعادات، والأزياء، والعلوم، والفنون والآداب،

[24] الرصافي، معروف، **الأعمال الشعرية الكاملة**، المجلدان الأول والثاني، ص:187، بيروت، دار العودة 2006م

والفكر، ونظم العيش الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية.ومعروف الرصافي أدي وظيفته أمام مجتمعه، لأنه شارک آلام مجتمعه وأخذ الشعر من قصور الملوك والحكام إلى عالم الشعب.

من خلال ما تقدم يمكن القول لقد كان الشاعر والأديب معروف الرصافي أحد أبناء عصره والذي كان شهد احتدام الصراع بين العثمانيين والبريطانيين على العراق، والذي انتهى في نهاية المطاف بسيطرة البريطانيين على العراق ووضعه تحت الانتداب البريطاني، وقد رفض الرصافي منذ صباه الاستعمار مهما تعددت أشكاله وألوانه، ولقد كانت حياته حافلة بالجهاد والكفاح الوطني والقومي المتواصل، فقد ظل الرجل طيلة حياته مكافحا يحمل هموم وطنه وامته في قلبه وداعية إلى الخير والحق لايبالي لومة لائم.

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-ShareAlike 4.0 International (CC BY-NC-SA 4.0)